

الشعر بين الرويَّة والبديهة و الروح والجسد. قراءة في ديوان (قبل التيه برقصة) للشاعر والناقد هاني الحسن

الرويَّة والبديهة مصطلحان نقديان من مصطلحات النقد العربي القديم، ورد ذكرهما على لسان ابن الرومي في قوله:

نار الرويَّة نارٌ جدٌ منضجةٌ

وفي البديهة نارٌ ذات تلويحٍ.

وقد يقدِّمها قوم لسرعتها

لكنها سرعةٌ تمضي مع الريح.

الرويَّة تستدعي مفاهيم تحفُّ بها؛ كالتشذيب والتحكيك، والعرض والمراجعة، ونقد الذات، والبديهة تستدعي الموهبة والطبع والارتجال و جريان اللغة وانسيابها. وهاتان السمتان لا يجتمعان في شاعر إلا كان شعره ناهضا بشرط ألا يطغى أحدهما على الآخر. هاني الحَسَن جمع بين الحُسنيين في هذا الديوان، فجاء شعره متوازنا ومتدفقا ومنسابا.

إنَّ معادلة الرويَّة والبديهة معادلة صعبة تتلبَّس الشاعر عندما يكون ناقدًا فتعيق انطلاقه وتحدُّ من جريانه أثناء الكتابة، فإذا كان في داخل كل شاعر ناقد حفيف يضبط إيقاعه أثناء الكتابة وماذا ك الناقد إلا روحه الناقدة، فإنَّ الشاعر الناقد سيكون محاطا بناقدين ضابطين؛ الروح الناقدة التي يمتلكها كل شاعر، والناقد التقليدي المتمرس، هذان الناقدان الرقيبان ربما تسبَّبا في إعاقة انطلاق الشاعر والحدُّ من تدفقه وجريانه في مضمار الكتابة، فتجده في تردُّد دائم أمام مواجهة الإبداع ومحاسبة الذات الشاعرة بشكل حاسم؛ ممَّا يضعف المَلَكة ويعيق الشعور أحيانا، تأخذه هذه الحالة ناحية المعقول وجهة المعايير الدقيقة للغة، فيكون أقرب إلى الحقيقة وأبعد عن التخيل والإشارة

وبين البين... وهذه الأمور من مرشحات الشعر الجميل.

الشاعر الناقد أشبه ما يكون بالطبيب حين يجري عملية جراحية لنفسه، وفي ذلك من العسر مالا يخفى، ومما يزيد الشاعر الناقد قلقا أنه ربما خشي أن يؤخذ عليه ما أخذه هو على غيره، فيكون محاطا أثناء الكتابة بمحاسبة عسيرة للنفس مخافة أن يعتري قصيدته النقص، فيكون محاجّـاً بالمساواة على مبدأ (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم)

لقد تمكّن هاني من الجمع بين ثنائية النقد والشعر فجاء شعره منسابا ومكثّفا ومتوازيا مع تعريف للبلاغة العربية في أنها: كرم المعاني في شحّ اللفظ، وحسبك أن تقرأ هذه الأبيات لتلمس بنفسك هذا الاختزال:

أنا حشدٌ من النزعاتِ

كلّـي رغبةٌ في الحبّ

ولم يسبق لثغري أن

تذوّقَ ريقَ ريمٍ عذبٍ

فما زال العفافُ يصدّني

عن فعلِ ذاك الذنبِ

ورغم الدهشة المتحصّلة من التكتيف والضغط الكمي للألفاظ فإنّ الوضع الدلّالي لم يفارق الغرض المدني كما يسميه ابن سينا، وهو غرض روحي أخلاقي ينتصر للروح والأخلاق ولمعاني القيمة التي تحت على فعلٍ وتردع عن فعلٍ آخر، فالعفاف والحياء يصدّان الشاعر عن ممارسة الحب الجسدي، ويسموان به إلى عالم الروح والتصوّف، نعم يريد الشاعر أن يكون صادقا مع القيم، ويريد الشعر أن يكون كاذبا مع الواقع الذي يعيشه الشاعر في عالم الخيال، يريد الشاعر أن يكون متوائما مع الأخلاق والتقاليد ويريد الشعر أن يكون مختلفا عن السائد ومنفلتا عن قيود اللغة ورتابة الوضع اللغوي.

هذه الأبيات الجميلة تذكرنا بتصوّف أبي العلاء المعريّ الذي حرم جسده من اللذات وعاش الروح مجردة عن الجسد، فعاتبه بدويّ الجبل بقوله:

إيهٍ رهينَ المحبسين ألم يئن

إطلاقُ مأسورٍ وفكُّ سراحٍ

أتضيقُ بالأنثى وحيدٌ لك لم يضق

بالوحش بين سباسٍ وبطاحٍ

يا شاتمَ التفاحِ في وجناتها

لو ذقتَ بعض شمائلِ التفاحِ

إن ظاهرة الصدق الأخلاقي تتوازي مع الصدق الفني لدى هاني، وهي من أهم سمات تجلّي هذا الديوان (قبل التيه برقصة) الذي غامر في تجربته مع اللغة مغامرة دافئة وحالمة؛ لأنها تقترن اقترانًا وثيفًا بالرومانسية، والرومانسية التي تكتفي بالحلم تبقى حروفها مسيّجةً بأسوار الأنا والذات التائهة، أمّا الرومانسية التي تفتح أذرعها للغة وتفرّغ صدرها من الأحلام الكسولة، وتقلّص من أجنحتها الهائمة بالقرب من الأرض، والنهر، والزهر، والثمر، والطير... فهي تقدّص نموذجًا يفى بمتطلبات الشعر الجميل في ابتكار علاقات الأشياء وتدشينها في لحظات وجدانية راقصة تنتظم في موسيقى عالية، وهو ما تكشف عنه هذه الأبيات:

هل لعيد النشوة الأولى مذاق

ولنا في رغبة الوصل عناق

عتّق الثغر الذي تغفو لماه

في جوى الروح السقيمة

أورقي زهرًا على جذب فلاتي

ربما يرقص عشبٌ

وسط صحرائي

وتخضرُ على كتفي العزيمة

ورغم التشتت الرومانسي والتهيه الخيالي الذي يشعُّ من هذه النصوص الأَنَوِيَّةِ إلا أنَّ العتبة الأولى (قبل التيه برفضة) تبدو متصلةً اتصالاً وثيقاً بالقصائد التي انضوت تحتها، فقد كوَّنت برنيةً مفتقرة إلى عنوانها من الناحية الدلاليَّة ومن ناحية التآزر الكبير بين بوابة العبور ولغة الديوان، وهذا يعني أنَّ إحالة العنوان إلى عمله إحالة منطقية تدعو إلى إشراكه في قراءة النصوص، فهو بمثابة شاغر قرائي بين النصوص والعنوان رغم افتقار العناوين في المَجْمَلِ إلى الصياغة النحوية أو البلاغية الصادمة التي تُبنى على الغريب وإثارة الدهشة؛ ممَّا يجعلها رهينة الصياغة الإجرائية.

الحب والشعر صنوان في هذا الديوان؛ كلاهما مفتاح بوابة الأحلام وسادن المشاعر الإنسانية حتى غدا هذا المعنى حدًّا شاعريًّا يُغذِّيهِ المبدع من أجل البؤساء؛ ليمارسَ به حبًّا معنويًّا مقدَّسًا:

انَّ القصيدةَ ليسُ الروح من وجعٍ

فهل يعيش الذي بالحبِّ ما التيسا؟

الشعر مدٌّ من الإلهام نكتبه

تحدِّ يا للأسى يحنو على البؤسا

لو استقوا لسقاهم منهلا عذِّبًا

وإن سعى في عراةٍ ضمَّهم وكسا

ومن أجل الرغبات أحياناً؛ ليمارس به حبّاً مؤنسّاً:

أنا حشدٌ من النزعاتِ

كلِّّي رغبةٌ في الحبِّ

ولم يسبق لثغري أن

تذوّقَ ريقَ ريمٍ عذبٍ

فما زال العفافُ يصدّني

عن فعلٍ ذاك الذنبِ

هذا الشحن العاطفي المتصارع بين الروح والجسد سبب أصيل في تجاذب وتدافع وتنافر قواميس اللغة ودلالاتها وتشعّبيها في هذا الديوان، حيث تشكل القصيدة مرآة شاعرها:

أنا وحيدٌ وثقل الجرح في رئتي

بملئه صارت الأنفاس تخنقني

تجمّعت كلماتي في وعاء يدي

وعندما أكتب الأشعار أكتبني

وقد تخبّأت في أدغال أسئلتي

وجدتُ لا شيءَ في الأشياءِ مثَّلني

ورغم هذا الصراع الذي يعدُّ انعكاساً لصراع ثنائية (الجسد والروح) في النفس الشاعرة والنفس البشرية بشكل عام، فالقصيدة تنتصر جماليَّتها للروح:

مشرَّدًا عن حياتي صنعت في جسدي

ما أصعبَ التيهَ بين الروح والبدن!

كم أبعدتني شؤون عن شؤون رؤي

وخان بي العمرُ لكن قطُّ لم أخُنْ.

لقد كانت هذه النصوص أمينة مع لغتها ومتصالحة مع المتلقين بجميع أطرافهم ما يجعلها جديرة بالقراءة والتأمل.